

الأدب كما ينبغي أن يكون

بقلم الأستاذ أحمد أحمد بدوي

ما غاية الأدب ؟ وما رسالته في الحياة ؟ سؤالان إذا نحن استطعنا الإجابة عنهما أفلحنا إلى حد كبير في تحديد ما ينبغي أن يكون عليه الأدب ، وما يجب أن يأخذه الأدباء أنفسهم حتى يصلوا أو يقاربوا المثل العليا التي ننشدها في الحياة ، ولا تظنوا أن الإجابة عن هذين السؤالين هينة يسيرة ، بل هي عسيرة جداً ، ومع عسرها تختلف باختلاف العصور إن لم تختلف باختلاف الأفراد ، ولكنني أستطيع أن أقول : إن الأدب الخالد ، أو بعبارة أخرى ما يجب أن يكون عليه الأدب ليكون خالداً ، هو تصوير المثل العليا للإنسانية ، ونشدها هذه المثل ، إذ أن غايتنا في الحياة هي السير إلى المثل العليا بمجد وعزيمة حتى نحققها أو نقاربها ، وبما أن الأدب هو المعبر الدقيق عن عواطف الإنسانية وآمالها وأحلامها ، فلتكن مهمته في الحياة هي تصوير المهمة الملقاة على عاتق الإنسانية وإن الإنسانية لتسير إلى المثل العليا على قدمين : العلم الذي يحقق الناحية المادية للمثل العليا ، والأدب الذي يحقق منه الناحية الروحية . وقد فرغ العلماء من إثبات ما بين الناحيتين من تآزر وارتباط ، وليس من واجبي الآن أن أتحدث عن المثل العليا للإنسانية فذلك يحتاج إلى كتب تؤلف فيه ، ولكنني فقط أحدثكم عن بعض هذه المثل مصورة في الأدب ومقتبسة من حياتنا المصرية الحاضرة

— ١ —

إذا نحن ذهبنا إلى الشعر العربي وجدنا فيه القيم الخالد ، وإلى جانبه الكثير من الرديء البائد ، ولن أحدثكم عن رداءة الشعر أو جودته من الناحية اللفظية ، ولكن من الناحية الروحية وناحية ما يبعثه في النفس من وجدان وشعور ، يسمو بنا إلى حيث نحقق ما خلقنا له ونعيش من أجله .

في الشعر العربي صور لا أغالي إذا قلت إنها ضعيفة لا تستحق خلوداً ، ولا ينبغي أن تلقى نشأنا ، ونؤدب بها أبناءنا ، لأنها تنأى بنا عن بلوغ غاياتنا ، وسأعرض طرفاً من هذه الآداب مقتصداً في إيراد ما استطعت . ففي الأدب العربي كثير من الشعر الذي

الدكتور الإيطالي ، صاحب التهديد ، الذي لا بد وقد بلغته أيضاً الخطب الشديدة والكلمات النارية التي ألقاها أخيراً في المجلس الوطني الكبير نواب الأمة التركية ، جواباً على تهديداته المعروفة ، وكذلك التصريحات الرسمية التي ختم بها هذه الجلسة شكرى قايا بك بالنيابة عن زميله وزير الخارجية الغائب ، عن موقف تركيا في الحرب المقبلة والتنويه الصريح الذي نوه به هذا إلى المصير السيئ المنتظر على حدود تركيا وسواحلها الصلدة الصلبة المهلكة لكل من تحدته نفسه بأن ينظر خلصة أو بأن يمد في ساعة جنون أو غرور يده إلى الأرض التي يفتديها في كل لحظة ١٧ مليون تركي و تركية ، من أعظم الأمم وطنية وشجاعة ، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم صناديد تركيا العظام الذين باعوا النفس في سبيل هذه التربة عشرات المرات : وهم الغازي وجماعته من كبار القادة

وعلى كل حال فلسنا هنا في معرض الانتقاص من قدر موسوليني إنما أردنا أن نبين أن الشرق مهد البطولة والأعمال الخالدة ومهبط الوحي ومنبت العلم والمدنية لا يعدم في أيامنا أيضاً أن يرد الغرب على أعقاب خاسراً نادماً ، ويرفع رأس الشرق والشرقيين عالياً . وقد أردنا بهذا المقال أن نبين بصورة خاصة كيف أجاب جبار الشرق على تهديد جبار الغرب ، وكيف ان القوة وحدها هي التي يحترمها الأقوياء ويهابون جانبها ، وكيف ان القوى وحده هو الذي يطلب وده وتلتبس صداقته .

ج . مولود

بغداد

نظر صريتا

البحث الديني الدقيق ..

القرآن

رسالة صغيرة جداً وأصول التلاوة

تأليف

محمد نعمه

ثمنه خمسون مليماً

٦٤ صفحة فقط

يطلب من المؤلف — بالاسكندرية شارع التوفيقية رقم ٣٧

تنبيه : كل طلب غير مصحوب بالقيمة يهمل ولا يلتفت اليه

ذلك شعر ينبع كله من واد واحد ومعين واحد ، هو الجبر
والإيمان بالقضاء والقدر إيماناً معكوساً ، والإيمان بالحظ إيماناً ساذجاً ،
وسأترككم إلى أنفسكم تحكمون على هذا الأثر الذي يتركه ذلك
الشعر في النفوس ، وهل يقربها إلى مثلها العليا ؟ ! أو هو على
العكس من ذلك يؤخرها ويسير راجعاً إلى الوراء ، إنكم رأيتموه
يدعونا إلى الرضا بفساد أخلاقنا ؛ لأن الفساد ليس باختيارنا ، ولكن
بأمر سببته المقادر ، ونحن عاجزون تماماً عن تغيير أخلاقنا عجز
الغراب عن تغيير لونه ، ورأيتموه يدعونا إلى الضعف والاستسلام
للقضاء والالقاء إليه بالمقالد ، ورأيتموه يسوئ بين الناس مقصرين
وغير مقصرين ، فكلهم لا يستحقون مدحاً ولا ذمّاً ، لأنهم لم يأتوا
مأثوم بقدرتهم واختيارهم ، بل هم مجبرون على أن يفعلوا ما فعلوا ،
ورأيتموه يقرن الرزق الواسع بالجهل ، والرزق الضيق بالعلم ، لأنه
يؤمن بالحظ ، وإذن فعلى العلم والتعلم السلام ، لأن أحداً من الناس
لا يرضى برزقه مقترراً ، ورأيتموه يؤمن بالحظ ويزرى بالعمل
والجد ، فقصدروا بأنفسكم ما يبعثه هذا الشعر في النفوس من
ضعف واستكانة واستسلام تبعد بنا عن المثل العليا التي لا تثبت
ولا تقوم إلا على دعائم من العمل ثابتة وطيدة ، حقاً أنا أو من
بالقضاء والقدر ، وأنا شخصياً أو من بالحظ ، ولكنه إيمان ليس
كإيمان هؤلاء ، إذ أنى أعتقد أن الإيمان بذلك كله لا يحول بين المرء
وعمله ، لأنه ما يدريه أنه قد كتب له الشقاء وقدر عليه التمس ، وأن
حظه بائس منكود ، وما يدريه أنه على العكس من ذلك قدر له
السعادة ، وكتب له النجاح وأن حظه حظ السعيد الموفق ؟
وبعد ذلك آخذ بيدكم لأريك أدب القوة والهمة والأرادة وهي
هي التي تأخذ بيدنا إلى بلوغ المثل العليا ، قال الشاعر :

فغزى لا يثنيه نحس ولا سعد
سأحمل نفسي عند كل ملة
على مثل حد السيف أخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثل بنى الغنى
ليكسب مالاً أو ينث له حمد
وإن مت لم أظفر فليس على امرئ
غدا طالباً إلا تقصيه والجهد
وقال غيره :

ذرني أنل مالا ينال من العلاء

فصعب العلاء في الصعب والسهل في السهل

أسميه شعر الضعف والاستسلام للواقع ؛ فتسمع فيه تلك النغمة
التي تحقر العمل وأرباب العمل ، وتدعو بملء فيها إلى الرضا وإلى
الاستسلام ، ومنشأ هذه النغمة على ما أرى هو إيمان أصحابها بالقضاء
والقدر إيماناً معكوساً ؛ إذا هم قد حسبوا ، وهم مخطئون فيما حسبوا ،
أن القضاء أو القدر لهما تأثير فعلي في فعل الإنسان وإرادته ، وإذا
كان الأمر كذلك فما قدره الله جل وعلا لا بد واقع لا محالة ، سواء
أعمل المرء أم لم يعمل ، وإذا كان العمل ، وترك العمل سواء ، فمن
العبث البين أن يكلف الإنسان نفسه مؤونة الجد والجهاد والمزاحمة
في تلك الحياة ، لأنه لن ينال على ذلك أجراً ، غير ما كان يناله لو
كف عن جده وجهاده ، وليس غرضي الآن أن أبين خطأ ذلك
التفكير ، فانه من البين الواضح أن القضاء والقدر ليسا إلا علم
الله فحسب بما سيكون ، والعلم ليس من صفات التأثير بل هو
من صفات الكشف والايضاح لادخله في قدرة الإنسان وإرادته
الإيمان بالقضاء والقدر على تلك الصورة التي أسلفت ذكرها
هو إيمان بالجبر ، وإيمان بالحظ على الصورة السطحية التي لا تتغلغل
في حقيقة الأشياء ، فأنكرت قدرة الإنسان وإرادته ودعنا إلى
الضعف والاستسلام وأنتجت لنا هذا اللون من الأدب الضعيف
قال الشاعر :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا
وفي الأصل غش والفروع توابع
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً
أنت على تغيير لونك قادر ؟
وقال أيضاً :

ويجري قضاء ما لكم عنه حاجز
فألقوا إلى مولاكمو بالمقالد
وقال أيضاً :

وجيلة الناس الفساد وفضل من
يسمو بحكمته إلى تهذيبها
وقال أيضاً :

لا تمدحني ولا تذم امرأ
فيها ، فغير مقصر كمقصر
وقال غيره :

عزت مطالب دنيا كل ذي أدب
وقدر الله فيها أن يذلها
فليس ينفك ذو علم وتجربة
وذو الجهالة منها في بلهنية
تبارك العدل فيها حين يقسمها
وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
فهان مطلبها للجاهل الحق
من ما كل جشب أو مشرب رنق
من مسمع حسن أو منظر أنق
بين البرية قسماً غير متفق .

تريدون إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
وقال أيضاً :

يهون على مثلي إذا رام حاجة وقوع العوالي دونها والقواضب
ويمعجني هنا ما قاله أحد شعراء الانجليز وترجمه إلى العربية
بعض أدباء الشباب قال :

لِي قلب لا يهاب فزعت منه الصعاب
بين أيامى ويبينى حادثات وغلاب
لست أشكو إنما الشكوى من الحر تعاب
أنا ربان سفينى هاج أو قر العباب
فليكن أو يقس دهرى إن قلبى لا يهاب

فأفرقوا بين الاحساسين اللذين يبعثهما هذان الشعراء المختلفان
مورداً وينبوعاً، وإني واثق الثقة كلها من أن الاحساس الذى يبعثه
فيكم الشعر الثانى هو الاحساس بالقوة والاحساس بالارادة ،
وإنا نطلب من الشاعر أن يحدثنا دائماً عن قوة إرادتنا ، وأنا
نستطيع فعل كل شيء لأن ذلك يبعث فينا إيماناً جديداً وعزيمة
جديدة بل ويخلقنا خلقاً جديداً ، وإن قوة الارادة هى المنبع الفياض
والمعين الذى لا ينضب للنجاح فى الحياة وبلوغ المثل العليا ، أما
الشعر الأول فشعر ضعيف مستسلم لا ينفعنا ولا يهذب من إرادتنا
ولون آخر من ألوان الأدب الضعيف يتصل بالأدب الجبرى ،
وقد يكون خدينه وشقيقه لأنه يستقى من معينه وينبع من ورده ،
وأعنى بهذا اللون أدب الزهد والقناعة ، ويطول بى الحديث إذا
حدثكم عن العوامل التى أنتجت لنا هذا النوع من الأدب ، وإن
كنت أرجع جل هذه العوامل الى سوء فهم الشرق للدين ، فقد
فهمنا وكنا مخطئين حين فهمنا أن الدين الاسلامى وهو دين العمل
والجهاد ودين الرفعة والطموح — يدعونا إلى الزهد فى الدنيا
والقناعة بما نصيبه منها من صباية قليلة ، فهمنا ذلك ، ووجدت
هذه التعاليم التى أخطأنا فهمها مرعى خصباً من قلوبنا الضعيفة
الخائرة ، وأنست من قلوبنا ضعفاً وقلة ثقة بالقدرة على الجهاد ،
والتغلب على ما يعترض سبيل الحياة وسبيل النجاح من صعاب
وعقبات ، فقنعنا بما فى أيدينا من قليل لا يرضى به إلا ضعاف
النفوس ضعيفو الهمم ، فكان ذلك أكبر عامل فى خلق هذا الأدب
الزاهد القنوع ، فأصبحت تسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

تبني من الدنيا الكثير وإنما يكفيك منها مثل زاد الراكب
وقوله :

أيها الباني قصوراً طوالاً
أمنت الموت والموت يأبى
أبت الدنيا على كل حى
إنما داعى المنايا ينادى
وقول الآخر :

مرحبا بالكفاف يأتى هنيئاً
ضلة لا مرمى يشمر فى الج
دائبا يكنز القناطير للوا
حبذا كثرة القناطير لو كا
يحسب الحظ كله فى يديه
ليس فى آجل النعيم له حظ
ذلك الخائب الشقى وإن كان
حسب ذى إربة ورأى جلى
صحة الدين والجوارح والعمر
تلك خير لعارف الخير مما
على المتعبات ذيل العفاء
مع لعيش مشمر للفناء
رث والعمر دائباً فى انقضاء
نت لرب الكنوز كنز بقاء
وهو منه على مدى الجوزاء
وما ذاق عاجل النعماء
يرى أنه من السعداء
نظرت عينه بلا غلواء
ض وإحراز مسكة الحوباء
يجمع الناس من فضول الثراء
إلى غير ذلك من أدب يحمل الدعوة إلى الزهد والقناعة ،

وإذا نحن أردنا أن ندرك آثار هذا الأدب فانه يجب علينا أن
نتصور شعباً نائماً كسلاً ، لا يجد ولا يعمل إلا بقدر ضئيل ، وماله
يجد وماله يعمل ، وقد وجد ما يمسك حوباءه ووجد قوته الضرورى ؟
وإنى أكاد أعتقد أن تأخر الشرق فى ميادين الاختراع وفى ميادين
العمل يعود كثير منه إلى خلق الزهد وخلق القناعة الذى غرس
فى قلبه وأثر فى كل عمله ، بل إنى أكاد أعتقد أيضاً أن استغلال
الغرب للشرق يعود إلى هذا الخلق الويل الذى يجرنا الى الفناء ،
فلندع القناعة بمعناها الذى ضرنا وأخرنا ، ولنتقبلها بمعنى ألا
نطمع فيما فى يد غيرنا ، أما بمعنى الرضا بالقليل فيجب أن نذهب بها
إلى قبر لا تخرج منه ل ترى ضوء الحياة ، ولتقبل على أدب الطموح
وأدب الآمال الذى يسمو بنا عن الرضا بالقليل نناله من غير أن
نبذل عناء فى نيله ولا تعباً ، ولنكرر دائماً مثل قول الشاعر :

ولو أن ما أسمى لأدنى معيشة
ولكنما أسمى لمجد مؤئل
وقول الآخر :

ذرينى للغنى أسمى فانى
وأضيعهم وأهونهم عليهم
يحقره الندى وتزدرية
رأيت الناس شرهم الفقير
وإن أسمى له حسب وخير
حليلته ويهزله الصغير